

تَعَامُلُ اللَّغَوِيِّينَ الْإِيجَابِيِّ مَعَ الْقِرَاءَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ

د. مبروك محمود شاذلي الشاذلي (*)

مُخَصِّصُ الْبَحْثِ

يتحدث البحث عما بذله علماء العربية قديماً وحديثاً تجاه القراءات القرآنية، مع إبراز الصلة الوثيقة بين علوم العربية والقراءات القرآنية، وتوضيح التواصل المعرفي بين القدامى والمحدثين تجاه القراءات.

وينقسم البحث إلى مبحثين:

المبحث الأول: تعامل اللغويين القدامى ويشمل:

١. الاحتكام إلى القراءات القرآنية في مواطن الخلاف النحوي.
 ٢. تضمين القراءات القرآنية والاستشهاد بها منذ بداية التأليف في علم العربية.
 ٣. تخصيص مصنفات لتوجيه القراءات متواترها وشاذها.
 ٤. الحرص على تتبع الأوجه الإعرابية المحتملة في كل قراءة من القراءات.
- المبحث الثاني: التعامل مع القراءات عند المحدثين، ويشمل:

١. دراسة القراءات القرآنية صوتياً.
٢. الفرع إليها لإثبات نظريات لغوية.
٣. وضع المعاجم الخاصة للقراءات القرآنية.
٤. التوجيه للقراءات عبر الشبكات التفاعلية.

ومن أبرز النتائج التي توصل إليها:

- أن اتهام النحويين البصريين بأنهم ينكرون كثيراً من القراءات، اتهام باطل.
- أن أكثر علماء العربية المتقدمين منهم والمتأخرين احترمو القراءات القرآنية وخدموها.

(*) أستاذ مشارك بجامعة حائل.

المقدمة

الحمد لله حمداً كثيراً، والصلاة والسلام على سيد الأنام نبينا محمد وعلى آله وصحبه الكرام.

أما بعد: فهذا بحث يتناول تعامل اللغويين من قدامى ومُحدّثين مع القراءات القرآنية، والمقصود بالتعامل هنا التعامل البناء الإيجابي الذي يحترم القراءات ويجعلها منطلقاً لتقعيد القواعد.

ونعني بالقدامى المؤلفين السابقين: ابتداء من البدايات الأولى للتأليف في علوم العربية وانتهاء بالعصر الحديث مع ظهور المطابع في العالم العربي في حدود سنة ١٨٢٠م. ويتضح في هذا البحث ما للقراءات من مكانةٍ عالية لدى أهل اللغة من نحويين وغيرهم، فقد حوت كتبهم عدداً كبيراً من القراءات، وزخرت مصنفاتهم بتوجيهاتٍ للقراءات القرآنية المختلفة، وعلى رأسهم إمام النحويين (سيبويه) الذي أُصِقت به تهمةٌ زائفة تتمثل في أنه يُنكر القراءات التي تخالف قواعد النحو، والأمر على عكس ذلك. كما سيتبيّن ذلك من خلال طيات هذا البحث.

وإذا كان القدماء احتفوا بالقراءات وعرفوا منزلتها وقدرها، فإن اللغويين المحدثين لم يَحِيدُوا عن هذا النهج، فدرسوا القراءات واستشهدوا بها وصنفوا المعاجم لأجلها، وكلُّ هذا يشهد بأن القراءات تتبوأ منزلة رفيعة ورتبة سنية في نفوس علماء العربية.

وهذا البحث يقع في مبحثين رئيسيين: أولهما: تعامل اللغويين القدامى مع القراءات، وثانيهما: تعامل اللغويين المُحدّثين مع القراءات.

وقد حاولَ البحث أن يبرز تلك العناية بالقراءات من لدن المتقدمين والمتأخرين.

الدراسات السابقة:

لم أجد من أفرد هذا الموضوع ببحث مستقل، لكن هناك بعض الدراسات التي

أشارت إلى جهود علماء اللغة السابقين في خدمة القراءات القرآنية، وأدحضت الاتهامات الموجهة لعلماء اللغة السابقين بأنهم كانوا ينكرون القراءات، فمن تلك الدراسات:

- ما تضمنه الفصل الثاني في كتاب (أثر القراءات في الدراسات النحوية) للدكتور عبد العال مكرم حيث ذكر ما للقراءات من مكانة عالية في نفوس علماء النحو القدامى، ومما قاله في هذا المقام: «شغلت القراءات أذهان النحاة منذ نشأة النحو؛ ذلك لأن النحاة الأوّل الذين نشأ النحو على أيديهم كانوا قراء كأبي عمرو بن العلاء وعيسى بن عمر الثقفي ويونس والخليل، ولعل اهتمامهم بهذه القراءات وجّههم إلى الدراسة النحوية؛ ليلتأموا بين القراءات والعربية»^(١).

ثم ذكر جملة من القراءات التي قعد عليها النحويون قواعد نحوية خاصة عند الكوفيين.

- بحث الدكتور أحمد الخراط تحت عنوان (عناية المسلمين باللغة العربية خدمة للقرآن الكريم) فقد عثونَ للمبحث الخامس بـ(عناية المسلمين بتوجيه القراءات في ضوء العربية خدمة للقرآن الكريم)، ومما قاله بهذا الصدد: «وقد بذل النحاة جهداً فائقاً لخدمة القرآن بمختلف قراءاته المتواترة والشاذة، فوجهوها بالتعليل المستند إلى الأصول المعتمدة عندهم، واستشهدوا على ذلك بالشواهد الفصيحة التي جمعوها من البوادي عبر رحلاتهم العلمية المديدة، وقد استندوا إلى هذه القراءات في تأصيل قواعدهم، وإرساء معالم الصناعة النحوية والصرفية»^(٢).

وتحدث الدكتور بشكل عام عن تلك الجهود وعن أنواع المصنفات في توجيه القراءات.

- بحث (موقف النحاة المعاصرين من القراءات الشيخ محمد عبد الخالق عزيمة نموذجاً) للدكتور/ سليمان العايد، وقد استعرض فيه التهم التي وجهها الشيخ محمد عزيمة لبعض النحويين، وذكر العايد أن في ذلك مبالغة بعد استعراضه أقوال الشيخ

(١) أثر القراءات في الدراسات النحوية: ٥٥.

(٢) عناية المسلمين باللغة العربية خدمة للقرآن الكريم: ٤٤.

عزيمة محاولاً الردَّ على كل تهمة، ثم ختم بحته بقوله: «إن التشنيع على النحاة في تناولهم للقراءات، أمر يقع في العلوم الأخرى... أما أن يكون الهجوم على طائفة برمتها... فهذا لم يكن فيما مضى، وقد صار نازلة في عصرنا، ومن هذا ما يقوم به بعض من يحمل همَّ الدِّفاع عن القرآن، وقراءاته، وقرآئه، وما يفهمونه من عباراتٍ تصدر من بعض النحاة يظنونها هجومًا على القراء وتعدّيًا على القراءات، ولم يكن علماءنا فيما مضى يفهمونها على هذا النحو، ولا يحملونها ما تُحمِّله في هذا العصر»^(١).

وبحسبنا هذا يختلف عما سبق في كونه يتتبع جهود اللغويين القدامى والمحدثين في خدمتهم للقراءات القرآنية على نحوٍ مفصل فيه تبيين لتلك الجهود وضرب الأمثلة عليها واستعراض لأبرز المؤلفات التي ألفها اللغويون قديما وحديثا في خدمة القراءات القرآنية مع حديث عن الجديد في العصر الحاضر.

(١) موقف النحاة المعاصرين من القراءات الشيخ محمد عبد الخالق عزيمة نموذجًا) بحث منشور في الشبكة العالمية (الإنترنت) ضمن بحوث المؤتمر العالمي الأول للقراءات / المغرب / ١٤٣٤هـ انظر موقع www.voiceofarabic.net و www.addani.ma

المبحث الأول

تعامل اللغويين القدامى مع القراءات

يتحدث هذا المبحث عن نظرة اللغويين القدامى بشكل عام إلى القراءات القرآنية ومدى احترامهم لها، واستنباط القواعد النحوية منها، وإيرادهم لها في بطون مصنفاتهم، ومحاولة توجيه تلك القراءات وذكر نظيرها من كلام العرب العرباء، وتتضح معالم ذلك من خلال العناصر الآتية:

١- الاحتكام إلى القراءات القرآنية في مواطن الخلاف النحوي.

عندما يقع خلاف نحوي بين النحويين فإن كل فريق يحاول أن يأتي بحجة دامغة وبرهان ساطع، ولاشك أن القرآن الكريم بقراءاته هو أصدق الأدلة وأوضح البراهين؛ لذلك فزع كثير من النحويين للقراءات لإثبات رأيٍ أو تعزيز حجة؛ لأن «كل ما ورد أنه قرئ به جاز الاحتجاج به في العربية، سواء كان متواتراً، أم آحاداً، أم شاذاً، وقد أطبق الناس على الاحتجاج بالقراءات الشاذة في العربية إذا لم تخالف قياساً معروفاً؛ بل ولو خالفته يُحتج بها في مثل ذلك الحرف بعينه»^(١).

وما قيل عن البصريين بأنهم ينكرون القراءات إذا خالفت قواعدهم أو أنهم لا يستدلون بها هو أمر فيه تجنٍّ ومبالغة؛ ولم يُعهد عن أوائل البصريين أنهم كانوا ينكرون القراءات، بل الأمر على عكس ذلك، فقد «كان القرآن الكريم وقراءاته مدداً لا ينضب لقواعدهم، وتوقف نفر منهم إزاء أحرف قليلة في القراءات لا تكاد تتجاوز أصابع اليد الواحدة، وجدوها لا تطرد مع قواعدهم... مع أنه لا يوجد في كتاب سيبويه نصوص صريحة مختلفة تشهد لهذه التهمة الكبيرة. وسرى الأخفش الأوسط يسبق الكوفيين المتأخرين إلى التمسك بشواذ القراءات، والاستدلال عليها من كلام العرب وأشعارهم. وفي الحق، إن بصري القرن الثالث هم الذين طعنوا في بعض القراءات، وهي أمثلة قليلة لا يصح أن تتخذ منها ظاهرة»^(٢).

(١) الاقتراح: ٧٥-٧٦.

(٢) المدارس النحوية: ١٩.

وهذا الاتهام الموجّه للبصريين في موقفهم من القراءات وعدم احتجاجهم بها - على فرضية صحته -

«ليس موقفا مستمرا على الدوام لا يفارقهم أجمعين ولا يفارقونه في جميع أحوالهم، فقد رأينا لبعض أئمة البصريين كسيبويه والأخفش مواقف من القراءات - وغيرها - تتسم بالاعتدال والحرص على الاستفادة منها أيّا كانت درجتها وعدم إهدار واحدة منها، فَهَمَّا - وقد حذا حذوهما أيضا كثيرٌ من البصريين - قد أكثرا من الاحتجاج بالقراءات القرآنية في كتبهما، كما كثرَ عندهما توجيهُ ما لا يجري من القراءات على مقاييس قومهما وقوانينهم توجيهًا رقيقًا لا قسرفيه أو عنثًا أو غلوا ولا تنافر فيه أو إخلالًا أو إبعادًا. ولا يغض من هذا ما حدث أحيانًا منهما أو من غيرهما من نحاة مدينتهما، فهو قليل من كثير، لا يغير من حقيقة الحكم عليهما وصوابه فيهما وفيمن تشبه في مسلكه بهما من سائر البصريين»^(١).

وفي كتاب (الإنصاف في مسائل الخلاف) عدد كبير من القراءات التي جيء بها للاحتجاج على صحة مذهب من المذاهب النحوية، فمما احتج به البصريون قراءة ﴿وَأَن كَلَّمَا يُوَفِّيَتُهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ﴾ [هود: ١١١] بتخفيف (إن)، وهي قراءة نافع وابن كثير^(٢)، مستدلين بذلك على جواز إعمال (إن) المخففة، ومنع ذلك الكوفيون^(٣).

وأما الكوفيون فاستدلوا بقراءات كثيرة أوردها ابن الأنباري، وهم في هذا المجال أكثر استشهادًا من البصريين، فمن ذلك:

قراءة ﴿أَوْ جَاءَ وَكُمُ حَصْرَةٌ صُدُّوهُمْ﴾ [النساء: ٩٠] وهي قراءة الحسن البصري ويعقوب الحَضْرِيِّ والمفضل عن عاصم^(٤)، مستدلين بذلك على أن ﴿حَصْرَتْ﴾ في قراءة الجمهور

(١) (الأخفش الأوسط أمقلد هو أم مجدد) د. عبد الكريم بن محمد الأسعد، مجلة البحوث الإسلامية، العدد ٣٨، ص: ٢٩٦.

(٢) انظر: النشر: ٢/٢٩٠.

(٣) الإنصاف: ١/١٥٩.

(٤) انظر: النشر: ٢/٢٥١.

﴿أَوْجَاءٌ وَكُمَّ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ﴾ هو فعل ماضٍ وقع موقع الحال وتقديره: حَصِرَةً صدورهم بدليل القراءة السابقة، ومنع ذلك البصريون^(١).

قراءة حمزة^(٢) ﴿وَأَنْقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾ [النساء: ١] بجر ﴿الأرحام﴾، احتج بها الكوفيون على جواز العطف على الضمير المجرور دون إعادة الجار، ومنعه البصريون^(٣).
قراءة عبد الله بن مسعود^(٤): ﴿وَإِذَا أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ [البقرة: ١٧٠]، احتجوا بذلك على أن (أن) المصدرية تعمل وهي محذوفة؛ إذ التقدير أن لا تعبدوا إلا الله، فحذف «أن» وأعملها مع الحذف، فدل على أنها تعمل النصب مع الحذف، وهذا لا يرضيه البصريون^(٥).

قراءة ابن عامر^(٦) ﴿فَأَسْتَقِيمًا وَلَا تَتَّبِعَانِ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٨٩] بتخفيف نون (تتبعان) على أنها نون التوكيد الخفيفة، فاستدل بها الكوفيون على جواز مجيء نون التوكيد الخفيفة بعد ألف الاثنين، ومنع ذلك البصريون^(٧).

من هنا يظهر أن الاحتجاج بالقراءات حاضر لدى أي خلاف نحوي، وإن كان الكوفيون أكثر احتجاجًا، وأكثر تمسكًا بظاهر القراءات من البصريين، وهذا يدل بالمقابل على أن البصريين يقدسون القراءات ويحترمونها؛ لأنهم لو لم يكونوا كذلك لما احتج الكوفيون عليهم بالقراءات التي يعرفون أن لها منزلةً ومكانةً لدى البصريين وغيرهم من النحويين.

٢- إيراد القراءات القرآنية والاستشهاد بها.

لا يكاد يخلو كتاب نحوي من كتب المتقدمين من ذكر القراءات والإشارة إليها، مما

(١) الإنصاف: ٢٠٥/١.

(٢) النشر: ٢٤٧/٢.

(٣) الإنصاف: ٤٥٦/٢.

(٤) انظر البحر المحيط: ٢٨٢/١.

(٥) الإنصاف: ٤٥٦/٢.

(٦) النشر: ٢٨٦/٢.

(٧) الإنصاف: ٥٣٦/٢.

يدل على قناعتهم التامة بأهمية القراءات وأنها مصدر أصيل من مصادر النحو العربي، وهي أسس مكين في تعديد القواعد، ولو توقفنا قليلاً عند الكتاب لسيبويه الذي يُعدّ من أوائل كتب العربية لوجدناه يورد قراءات عديدة، وقد قال في الصفحات الأولى من كتابه: «إِلَّا أَنَّ الْقِرَاءَةَ لَا تُخَالَفُ؛ لِأَنَّ الْقِرَاءَةَ السُّنَّةُ»^(١).

فلو كان سيبويه ممن ينكر القراءات لقال: إذا خالفت القراءات القواعد أو خالفت الأرجح فلا يُنظر إليها، لكنه قرر بصيغة التأكيد (أَنَّ الْقِرَاءَةَ لَا تُخَالَفُ).

وهو يتأدب مع القراءات حتى وإن كان الوجه الأقوى نحوياً على خلافها، من مثل قوله: «وقد قرأ أناس^(٢): ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ﴾ [المائدة: ٣٨] و﴿وَالزَّانِيَةُ وَالزَّانِي﴾^(٣) وهو في العربيّة على ما ذكرت لك من القوّة، ولكن أبَتِ العامّةُ إلَّا القِراءةَ بالرفع». فلم يقل: إنَّ قِراءةَ الرفعِ خلافُ الأولى، بل ذكر أنها قِراءةُ عامّةِ القِراء.

لقد «عني سيبويه في كتابه بتوجيه كثير من القراءات المتواترة والشاذة، وبين معناها وما تؤول إليه في ضوء ما اختاره لها من استدلال، واستشهد على اختياره بطائفة من الشواهد الفصيحة؛ كالقرآن والشعر وأقوال العرب»^(٤). وسيبويه في استعراضه للقراءات على أحوال ثلاثة تقريباً:

الحال الأولى: أنه يذكر القِراءةَ مستشهداً بها وموجّهاً لها، من ذلك: أقواله الآتية: «وبلغنا أن بعضهم قرأ^(٥) هذا الحرف نصباً: ﴿وَأَمْرًا تُهْ، حَمَّالَةَ الْحَطْبِ﴾ [المسد: ٤]، لم يجعل الحمالة خبراً للمرأة، ولكنه كأنه قال: أذكرُ حمّالةَ الحطب، شتمًا لها، وإن كان فعلاً لا يُستعمل إظهاره»^(٦).

(١) الكتاب: ١٤٨/١.

(٢) هي قِراءةُ عيسى بن عمر وابن محيصن، انظر البحر المحيط: ٤٧٦/٣.

(٣) النور: ٢. وقِراءةُ النصب هي لأبي جعفر وعيسى بن عمر، انظر البحر المحيط: ٤٢٧/٦.

(٤) جهود سيبويه في التفسير (مقال للدكتور: أحمد الخراط) مجلة البحوث والدراسات القرآنية بمجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف العدد الأول.

(٥) هي قِراءةُ عاصم، انظر النشر: ٤٠٤/٢.

(٦) الكتاب: ٧٠/٢.

«وقد بلغنا أن بعض القراء^(١) قرأ: ﴿مَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ. وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٦] وذلك لأنه حمل الفعل على موضع الكلام؛ لأن هذا الكلام في موضع يكون جواباً؛ لأن أصل الجزاء الفعل، وفيه تعمل حروف الجزاء؛ ولكنهم قد يضعون في موضع الجزاء غيره»^(٢).

«اعلم أنه لا يجيء في كلامهم على بناء: حاميم وياسين، وإن أردت في هذا الحكاية تركته وفقاً على حاله، وقد قرأ بعضهم^(٣): ﴿يَاسِينَ * وَالْقُرْآنِ﴾ [يس: ١-٢]... فمن قال هذا فكأنه جعله اسماً أعجمياً، ثم قال: أذكرُ ياسين»^(٤).

الحال الثانية: أنه يذكر أن القراءة جاءت على وجه من العربية ربما غيره أكثر منه أو أجود، من ذلك:

«وزعموا أن بعضهم قرأ^(٥): ﴿وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ [ص: ٣] وهي قليلة، كما قال بعضهم في قول سعد بن مالك القيسي:

مَنْ فَرَّ عَنْ نِيرَانِهَا فَأَنَا ابْنُ قَيْسٍ لَا بَرَّاحٍ
جَعَلَهَا بِمَنْزِلَةِ (لَيْسَ)، فهي بمنزلة لَاتٍ في هذا الموضع في الرفع»^(٦).

«وقد قرأ بعضهم^(٧): ﴿وَأَمَّا تُمُودٌ فَهَدَيْتَاهُمْ﴾ [فصلت: ١٧]. وأنشدوا هذا البيت على وجهين: على النصب والرفع، قال بشر بن أبي حازم:

فَأَمَّا تَمِيمٌ تَمِيمٌ بِنُ مُرٍّ فَالْفَاهُمُ الْقَوْمُ رَوَّبِي نِيَامَا
فالنصب عربيٌّ كثيرٌ، والرفعُ أجود»^(٨).

(١) هي قراءة حمزة والكسائي بتسكين الراء من (يذرهم)، انظر النشر: ٢٧٣/٢.

(٢) الكتاب: ٩٠-٩١/٣.

(٣) هي قراءة عيسى بن عمر، انظر البحر المحيط: ٣٢٣/٧.

(٤) الكتاب: ٢٥٨/٣.

(٥) هو أبو السمال، انظر: البحر المحيط: ٣٨٤/٧.

(٦) الكتاب: ٥٨/١.

(٧) هي قراءة الحسن والأعمش وعيسى بن عمر، انظر البحر المحيط: ٤٩١/٧.

(٨) الكتاب: ٨٢/١.

الحال الثالثة: أنه يذكر القراءة في سياقٍ يُفهِمُ أنه متردد في صحة القراءة؛ لأن في عهد سيبويه لم تجمع القراءات في كتابٍ يوضح أسانيدَها وصحتَها وشذوذَها، إلا أنه مع هذا فإن سيبويه لا ينكر القراءة، ولا يصرح بتضعيفها، مما يدل على تحرزه الشديد تجاه الحكم على القراءات، فمن ذلك قوله: «واعلم أن (كفى بنا فضلاً على مَنْ عَيْرْنَا) أجودُ وفيه ضعفٌ، إلا أن يكون فيه (هو)؛ لأن (هو) من بعض الصلة، وهو نحو: مررت بأبيهم أفضل، وكما قرأ بعض الناس^(١) هذه الآية: ﴿تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنُ﴾ [الأنعام: ١٥٤]...»^(٢).

ومهما يكن من أمر فإن سيبويه -رَحِمَهُ اللهُ- فتح الباب واسعاً لإيراد القراءات والاستئناس بها وذكر وجوهها في العربية، وهكذا سارت المؤلفات النحوية بعده، وإن كان بعضها لا يتورع في إنكار القراءة التي لا توافق القاعدة النحوية. لكن في نهاية المطاف تُورد تلك المؤلفات القراءات القرآنية وتعلق عليها.

وعلى خطأ سيبويه سار المؤلفون في العربية على نهجه في ذكر القراءات، بغض النظر عن الشطط الذي ارتكبه بعضهم في إنكار بعض القراءات أو توهينها؛ لأنه لو لم تكن للقراءات مكانةٌ رابية عند أولئك النحويين لأعرضوا عن ذكرها ولتنكبوا الطرق المؤدية إليها، بيد أنهم ذكروها وأسهبوا في الحديث عنها، مما يدل على حرصهم عليها وعلى الاستشهاد بها، بين مُقلِّ منهم ومُكثر.

وإذا ما تركنا عصر سيبويه، وانتقلنا إلى العصور المتأخرة، وبجثنا عن أنموذج من النحويين يهتم بالقراءات ويستشهد بها كثيراً، ألقينا ابن مالك الجبالي (ت: ٦٧٢هـ)، فقد عرَّج على كثير من القراءات في كتبه المختلفة، بل وجعلها منطلقاً لتقعيد قاعدة ما، وأثبت ذلك نظماً في منظومته (الكافية الشافية) وذلك في تجويزه الفصل بين المتضايين بغير الظرف والجار والمجرور، إذ قال:

(١) هي قراءة يحيى بن معمر وابن أبي إسحاق، انظر البحر المحيط: ٤/٢٥٥.

(٢) الكتاب: ١٠٧/٢-١٠٨.

وَعُمْدَتِي قِرَاءَةُ ابْنِ عَامِرٍ وَكَمَّ لَهَا مِنْ عَاضِدٍ وَنَاصِرٍ

ثم قال في شرحه: «عُلِمَ بهذا أن قراءة ابن عامر^(١) - رَحِمَهُ اللَّهُ - غير منافية لقياس العربية. على أنها لو كانت منافية له لوجب قبولها لصحة نقلها، كما قُبِلَتْ أشياء تنافي القياس بالنقل، وإن لم تُساوِ صحتها صحة القراءة المذكورة ولا قاربتها، كقولهم: (استحوذ) وقياسه: استحاذ. وكقولهم: (بنات ألبه) وقياسه: ألبه. وكقولهم: (هذا جُحْرٌ صَبَّ خَرْبٌ) وقياسه: خرب. وكقولهم: (لَدُنْ غَدْوَةٌ) بالنصب وقياسه: الجر وأمثال ذلك كثيرة»^(٢).

وعلى الرغم من أن إمام المفسرين الطبري (ت: ٣١٠هـ) أنكر قراءة ابن عامر^(٣) إلا أن ابن مالك لا يسير مع ذلك، أو يلين جانبه، بل يدعُ كل قولٍ يخالف القراءة الصحيحة جانباً، ويقعد على تلك القراءة؛ لذا قال ابن الجزري: «وَأَوَّلُ مَنْ نَعَلِمَهُ أَنْكَرَ هَذِهِ الْقِرَاءَةَ، وَغَيَّرَهَا مِنْ الْقِرَاءَةِ الصَّحِيحَةِ وَرَكِبَ هَذَا الْمَحْذُورَ ابْنُ جَرِيرٍ الطَّبْرِيُّ بَعْدَ الثَّلَاثِمِائَةِ، وَقَدْ عُدَّ ذَلِكَ مِنْ سَقَطَاتِ ابْنِ جَرِيرٍ... وَلِلَّهِ دَرُّ إِمَامِ الثُّحَاةِ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ ابْنِ مَالِكٍ رَحِمَهُ اللَّهُ حَيْثُ قَالَ فِي كَافِيَتِهِ الشَّافِيَّةِ:

وَحَجَّتِي قِرَاءَةُ ابْنِ عَامِرٍ فَكَمَّ لَهَا مِنْ عَاضِدٍ وَنَاصِرٍ»^(٤)

وعلى الرغم من أن كتب ابن مالك جميعها تزخر بالقراءات القرآنية، لكن لعل أكثرها ذكراً للقراءات هو كتابه (شرح شواهد التوضيح والتصحيح لمشكلات الجامع الصحيح)، فلا يكاد يخلو موضوع فيها من ذكر عدد من القراءات^(٥).

(١) يقصد الآية رقم ١٣٧ من سورة «الأنعام» وهي: «وَكَذَلِكَ زَيْنٌ لكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ شُرَكَائِهِمْ».

بإضافة (قتل) إلى (شركاء) والفصل بينهما بمفعول المصدر (أولاد) انظر: النشر: ٢٦٣/٢.

(٢) شرح الكافية الشافية: ٩٨١/٢ - ٩٨٢.

(٣) انظر تفسير الطبري: ١٣٧/١٢ وفيه قوله: «والقراءة التي لا أستجيز غيرها: ﴿وَكَذَلِكَ زَيْنٌ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ شُرَكَائِهِمْ﴾».

بفتح الزاي من «زين»، ونصب «القتل» بوقوع «زين» عليه، وخفض «أولادهم» [الأنعام: ١٣٧] بإضافة «القتل» إليهم، ورفع «الشركاء» بفعلهم، لأنهم هم الذين زينوا للمشركين قتل أولادهم.

(٤) النشر في القراءات العشر: ٢/٢٦٤.

(٥) يُنظر: الاحتجاج بالقراءات في شواهد التوضيح: ١.

٣- توجيه القراءات وتتبع أوجه الإعراب المحتملة فيها.

كما ظهر سلفاً أن قدامى اللغويين اهتموا بالقراءات، وأولّوها عنايتهم، وأوردوها في كتبهم منذ بزوغ شمس التأليف في علوم العربية، إلا أن النحويين لم يكتفوا بذلك، فأرادوا أن يضعوا كتباً متخصصةً في فن توجيه القراءات، ذاك الفن الذي يُعنى بذكر وجه القراءة في لغة العرب والتماس الدليل لقراءة كل قارئ «إما بالاستناد إلى قاعدة مشهورة في العربية، أو بالتماس علّة خفية بعيدة الإدراك... أو بالاعتماد على القياس وحشد النظائر»^(١).

إن كتب توجيه القراءات خدمت القراءات من جهة، وخدمت العربية من جهة أخرى فهي «تَمْرُجُ مستوياتِ الدرس اللُّغويِّ الأربعة ببعضِ: الصوتي، والصرفي، والنحوي، والدلالي، وتعدُّ من أرقى الدراسات التطبيقية في اللغة العربية، وهي تمثّل اللُّحمة القويّة بين علوم العربيّة وعلوم القرآن، وتصورُ التآخي بينهما في أعلى مراتبه، وأسمى درجاته؛ لأنّها تتخذ النَّصَّ المقدَّسَ مجالاً للدِّرس، وترومُّ خدمته، ورفع ما يحيق بفهمه من حواجز، وتيسير ذلك الفهم من خلال تناوُلِ لغويٍّ ميسرٍ يعتمد التحليل، والإعراب، وذكر النظائر، والاستئناس بالرأي أو الآراء الأخرى، وتخريج ما في القراءة على كلام العرب، أو آراء العلماء ومذاهبهم»^(٢).

ومن أبرز كتب توجيه القراءات المتخصصة التي وصلتنا سالمّةً عبر رحلة القرون:

معاني القراءات لأبي منصور الأزهري (ت: ٣٧٠هـ).

الحجة في القراءات السبع لابن خالويه (ت: ٣٧٠هـ).

الحجة في علل القراءات السبع لأبي علي الفارسي (ت: ٣٧٧هـ).

المحتسب في تبين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها لابن جني (ت: ٣٩٢هـ)

(١) مقدمة تحقيق كتاب حجة القراءات للفارسي: ١٥/١.

(٢) عناية المسلمين بالعربية خدمة للقرآن الكريم: ٦٠.

حجة القراءات لأبي زرعة (ت: ٤٠٣هـ).

الكشف عن وجوه القراءات السبع لمكي بن أبي طالب (ت: ٤٣٧هـ).

كشف المشكلات وإيضاح العضلات في إعراب القرآن وعلل القراءات، لنور

الدين الباقولي، الملقب بجامع العلوم النحوي (ت: ٥٤٣هـ).

الموضّح في وجوه القراءات وعللها لنصر بن علي الشيرازي المعروف بابن أبي

مريم (ت: ٥٦٥هـ).

إعراب القراءات الشاذة لأبي البقاء العكبري (ت: ٦٦١هـ).

الدر المصون في علوم الكتاب المكنون للسمين الحلبي (ت: ٧٥٦هـ).

اللباب في علوم الكتاب لابن عادل دمشقي (ت: ٨٨٠هـ) وإن كان خلطه

بالتفسير.

إتحاف فضلاء البشر بالقراءات الأربعة عشر للدمياطي (ت: ١١١٧هـ)، وإن كان

الكتاب عن القراءات لكن يوجّه كثيراً منها.

وتلك المؤلفات إما أن توجّه القراءات السبع وتقتصر على ذلك كما في كتاب

(الكشف عن وجوه القراءات السبع)، أو أنها تزيد على ذلك فتوجّه القراءات العشر

كما في (الموضح في وجوه القراءات وعللها)، أو تقتصر على القراءات الشاذة كما في

(المحتسب)، أو أنها توجّه القراءات جميعها متواترها وشاذها كما في (الدر المصون)،

وهي في ذلك بين المُقتضب الذي يشير إشارات سريعة دون تفصيل، والمُسهب الذي

يستقصي الوجوه ويحشد الأدلة ويجمع الأقوال ويناقش الآراء، وبعضها متوسط بين هذا

وذاك، فمن الكتب التي جرت على الاختصار والاقتضاب: معاني القراءات لأبي منصور

الأزهري، والحجة في القراءات السبع لابن خالويه، والمحتسب لابن جني، فهذه الكتب

تكاد تقتصر على الوجه والوجهين في توجيه القراءة، ويكون للمؤلف رأيه المحدد دون

ذكر لآراء أخرى، ومن الكتب التي توسطت بين الإسهاب والاقتضاب وذكرت عدداً من

الأقوال والآراء: الكشف لمكي الذي وصّف منهجَه بقوله: «واختصرنا الكلام في العلل

غاية ما قدرنا من غير أن نكون قد أخللنا بعلّة، أو تركنا حجةً مشهورةً، وأوجزنا العلل خوف التطويل»^(١).

أما الكتب التي أسهبت وتوسعت في ذكر الأقوال فيأتي في صدارتها الحجة لأبي علي الفارسي الذي قال فيه تلميذه ابن جني: «فإن أبا علي _ رَحِمَهُ اللهُ _ عمل كتاب الحجة في القراءات، فتجاوز فيه قدر حاجة القراء إلى ما يجفو عنه كثير من العلماء»^(٢).

وقال محققو الكتاب عن منهج أبي علي: «وهو في أثناء ذلك غزير متدفق، يشقق المسائل، ويقلب النظر فيها من كل جانب، ويشرح فيطيل، ويستطرد فيمعن في الاستطرد»^(٣).

ولا يعني هذا التطويل أنه غير مفيد، أو أنه حشو كلام، إنما هو أسلوب في التأليف يعتمد على الاستطرد ليثري القارئ بأمور لها علاقة بالقراءات، وتكون مناسبة الحديث عنها موافيةً في ذلك الموضوع.

ومما سار على نهج التفصيل وذكر الأقوال والأوجه المتعددة كتاب «الدر المصون» للسمين الحلبي الذي حاول جاهداً أن يحصر القراءات متواترها وشاذها، ويذكر كل ما قيل في توجيه تلك القراءات، وأن يتعقب من سبقه ويستدرك عليه «ومن النادر أن يُغفل السمينُ قراءةً ما شاذةً أو متواترةً، وقد نجد في هذا الكتاب أكثر من عشرين قراءةً لكلمة قرآنية، ونجد إلى جانبها آراء العلماء وتوجيهها»^(٤).

ومن هنا يظهر جلياً أن النحويين مُتَنَوَّعُو الطرح، مُتَخَلِّفُو المنهج في استعراضهم للقراءات وتوجيهها، وذلك أمر يتيح فرصةً للقارئ ليختار ما يناسب حصيلته العلمية، وينتقي الأسلوب الذي يرضيه؛ إذ هو غير محصور بلون واحد من التأليف أو نهج متحد في الثقيف، بل أمامه أفنان مختلفة بيّد أنها في الهدف متفقة، وهو خدمة القراءات القرآنية، وإثراء الدرس اللغوي المبني على القراءات.

(١) الكشف: ٣٩٣/٢.

(٢) المحتسب: ١٠٦/١.

(٣) مقدمة التحقيق لكتاب الحجة: ص: ٣٠-٣١ (تحقيق علي النجدي ناصف وزملاؤه).

(٤) مقدمة تحقيق الدر المصون: ص: ٣٢.

ولم يكتف المتقدمون عند توجيههم للقراءات بذكر وجهٍ أو وجهين، بل حاول كثير منهم استقصاء الأوجه الإعرابية المحتملة في كل قراءة، خاصة المتأخرين منهم كأبي حيان الأندلسي والسمين الحلبي.

ومحاولة الاستقصاء وتتبع الأوجه الإعرابية ينتج عنها فهمٌ أكثر لمعاني الآيات، وتفتيقُّ للأذهان في تمعن الدلالات، وبما أن الإعراب فرع عن المعنى في كثير من الأحيان، فلا غرور ولا عجب أن يجتهد أصحاب التوجيه في تتبع تلك الأوجه الإعرابية واستدراك ما فات السابقين، فهذا ابن جني (ت: ٣٩٢هـ) في المحتسب ذكَّر أنه بسَطَ القولَ في توجيه القراءات التي اكتفى السابقون بالتعريج على شيء مما فيها، فقال: «وكان مَنْ مضى من أصحابنا لم يضعوا للحجاج كتاباً فيه [أي في الشاذ]، ولا أولوه طرفاً من القول عليه، وإنما ذكروه مروياً مسلماً مجموعاً أو متفرقاً... فحَسَنَ بل وَجَبَ التوجُّهُ إليه، والتشاغل بعمله، وبَسَطَ القول في غامضه ومشكله»^(١).

ولو بحثنا عن مثال آخر بعد عهد ابن جني بفترة لألفينا ابن عطية الأندلسي (ت: ٥٤٦هـ) مثلاً واضحاً للحرص على التقصي، وذلك في (المحرر الوجيز) وهو كتاب في التفسير إلا أنه اعتنى بتوجيه القراءات، وأبان عن منهجه بقوله: «وقصدتُ تتبَّع الألفاظ حتى لا يقع ظُفْرٌ كما في كثير من كتب المفسرين... وقصدتُ إيراد جميع القراءات مستعملها وشاذها، واعتمدت تبين المعاني وجميع محتملات الألفاظ، كل ذلك بحسب جهدي وما انتهى إليه علمي»^(٢).

فقد ذكر أن بعض السابقين فَرَزَ بعضَ دلالات الألفاظ ومعانيها ومن ضمن ذلك معاني القراءات التي أشار إلى عنايته بها وإيراده لكل وجه محتمل فيها.

لكن أصدق مثال على تقصي الأوجه الإعرابية موجود عند أبي حيان الأندلسي (ت: ٧٤٥هـ) وتلميذه السمين الحلبي (ت: ٧٥٦هـ)، فقد أوضح كل منهما أنه عمد إلى ذلك، فأبو حيان في البحر المحيط ظهر مهتماً بـ«القراءات شاذها ومستعملها، ذاكرةً توجيه

(١) المحتسب: ١/ ١٥٠.

(٢) المحرر الوجيز: ١/ ٣٤.

ذلك في علم العربية، ناقلاً أقاويل السلف والخلف في فهم معانيها، متكلماً على جليها وخفيها»^(١).

والسمين الحلبي جعل كتابه (الدر المصون) خاصاً بإعراب القرآن الكريم وتوجيه القراءات القرآنية، وأمضى عقوداً في ذلك يتتبع ويتقصى ويستدرك، وهذا ما يشير إليه قوله: «ولم آل جهداً في استيفاء الكلام على مسائل هذا الكتاب، فإني تعرضت للقراءات المشهورة والشاذة وما ذكر الناس في توجيهها ولم أترك وجهاً غريباً من الإعراب وإن كان واهياً... وهذا التصنيف- في الحقيقة- نتيجة عمري وذخيرة دهري، فإنه لب كلام أهل هذه العلوم»^(٢).

إن هذا الحرص الشديد على الاستقصاء وذكر الآراء ينبىء عن العناية الشديدة بالقراءات القرآنية واستقاء الفوائد اللغوية منها، وهذا ما لا نجد - مثلاً - في الشعر الذي يُكتفى في إعرابه بوجه أو وجهين، وهذا يدل دلالة ساطعة على أن علماء العربية الأوائل أدركوا ما للقراءات من أهمية، وما لتوجيهها من مزية، فما تركوا شاردةً ولا واردةً إلا ذكروها، كلٌ حسب علمه وطاقته.

إن محاولة الاستقصاء والتحري عن وجوه جديدة لم تذكر من قَبْل هي التي جعلت علم توجيه القراءات يمتد طوال هذه القرون، وتتوالى مواكبه لتنير في عصرنا كواكبه.

(١) البحر المحيط: ١ / ٤.

(٢) مقدمة الدر المصون ص: ٥-٦.

المبحث الثاني

التعامل مع القراءات عند المُحدِّثين

عُني اللغويون المحدثون بالقراءات كما عُني الأقدمون بذلك، إلا أنه في العصر الحديث اتجهت الأنظار صوب المعامل الصوتية، وأجهزة قياس الصوت بجزء من الثانية، وهذه المعطيات أسهمت في إعادة النظر فيما قاله الأقدمون، ولسنا بصدد الحكم على المحدثين من حيث الخطأ والصواب فتلك مسألة أخرى، وإنما المقصود أن المحدثين ولا سيما المتخصصين في (علم اللغة) اهتموا بالقراءات القرآنية، ودرسوها واستنبطوا أحكاما لغوية من خلالها، مُقَرَّرِينَ «أنَّ قراءات القرآن هي الوثيقة التاريخية التي نطمئن إليها في فقه اللغة الفصحى من جميع نواحيها، الوثيقة التي تنتقل إلينا بالصورة والصوت معاً، يتوارثها القراء جيلاً بعد جيل ... إذ إنَّ هذه القراءات على اختلاف رواياتها سَجَلٌ دقيق لما كان يجري في كلام العرب من تصرفات صوتية ولغوية»^(١).

وهذا ما سنتبينه في العناصر الآتية:

١- دراسة القراءات القرآنية وفق علم اللغة الحديث:

مهّد علماء اللغة القدامى الطريق لدراسة القراءات صوتياً، بعد أن تركوا «مصنفات شتى في القراءات السبع والقراءات العشر وغيرها؛ ضمت بين جنباتها الثر الوفير من علوم اللغة العربية، ولا سيما علم الأصوات اللغوية، الذي أدهش ... علماء الغرب في الدراسات الألسنية المعاصرة. والحق الذي لا مرأى فيه، أن دارس العربية إن لم يطلع على القراءات القرآنية وما فيها من الظواهر الصوتية والنحوية غاب عنه الكثير من أسرار هذه اللغة المعطاء»^(٢).

ومما لا شك فيه أن القراءات القرآنية «هي الأساس في أية دراسة صوتية؛

(١) أثر القراءات في الأصوات والنحو العربي: ص: ٩.

(٢) مقدمة التحقيق لكتاب الكنز في القراءات العشر ١/٧.

لمحافظتها على النطق العربي الأصيل وتمثيلها لجميع لهجات العرب»^(١). وتشمل تلك الدراسات المقاطع الصوتية في القراءات التي يشيع فيها ثلاثة مقاطع: مقطع صغير (ص ح)، مقطع متوسط مفتوح (ص ح ح)، مقطع متوسط مقفل (ص ح ص)^(٢).

كما تشمل تلك الدراسات المظاهر الصوتية في القراءات، كالإدغام والإمالة وتخفيف الهمز... إضافة إلى أن القراءات القرآنية «أصل المصادر جميعاً في معرفة لهجات العربية؛ لأن منهج علم القراءات في طريقة نقلها يختلف عن كل الطرق التي نقلت بها المصادر الأخرى كالشعر والنثر، بل يختلف عن طرق نقل الحديث»^(٣).

إن هذه الأهمية للقراءات صوتياً حداً ببعض كليات اللغة العربية لإقرار مادة (اللهجات والقراءات القرآنية)^(٤)، إضافة للرسائل العلمية (ماجستير، دكتوراه) في دراسة القراءات صوتياً.

ومن أمثلة تلك الرسائل^(٥):

منهج أبي حيان الأندلسي في اختياراته من القراءات القرآنية في ضوء علم اللغة المعاصر (دكتوراه) - جامعة عين شمس، ١٩٨٩، للباحث: يحيى عطية القاسم.

التحليل النطقي والإكوستيكي للظواهر الصوتية في القراءات الشاذة، (دكتوراه) - جامعة اليرموك، ٢٠٠٣، للباحثة: عبير نواف بني مصطفى.

الفصل والوصل بين علم القراءات وعلم النحو: دراسة صوتية، (دكتوراه) - الجامعة الأردنية، ٢٠٠٤، الطاهر محمد المدني علي.

(١) البنية المقطعية وأثرها الدلالي في القراءات القرآنية (بحث للدكتور محمد إسماعيل محمد، مجلة آداب الرفادين، العدد ٥٤)

(٢) السابق.

(٣) اللهجات العربية في القراءات القرآنية ٨٣-٨٤.

(٤) انظر على سبيل المثال موقع جامعة أم القرى الإلكتروني (توصيف مقررات قسم اللغة العربية) وموقع جامعة المنوفية بمصر / كلية الآداب www.menofia.edu.eg/faculty_generalInfo.asp

(٥) انظر على سبيل المثال الموقع الإلكتروني (مركز الإمام أبي عمرو الداني) www.Addani.ma.

- الجوانب الصوتية في كتب الاحتجاج للقراءات، (دكتوراه) - جامعة حلب، ٢٠٠٥ للباحث: عبد البديع النير بائي.
- القراءات العشر في ضوء الدرس الصرفي (دكتوراه) - جامعة دمشق ٢٠٠٦ للباحث: محمود ناصر نصار.
- التوجيه اللغوي للقراءات التي تفرد بها أبو جعفر، (ماجستير) - جامعة اليرموك، ١٩٩٢ للباحث: يوسف عبد الله خليل العقيل.
- المبرد والقراءات القرآنية: دراسة لغوية، (ماجستير) - جامعة اليرموك، ١٩٩٣ للباحث: أحمد عبد الكريم سالم كليب.
- توجيهات مكي للقراءات القرآنية من وجهة نظر نحوية في ضوء علم اللغة الحديث، (ماجستير) - جامعة مؤتة، ١٩٩٥ للباحث: منصور عبد الكريم الكفاوين.
- معايير الشذوذ في القراءات القرآنية في ضوء علم اللغة الحديث (ماجستير) - جامعة مؤتة، ١٩٩٥ للباحث: شاهر إسماعيل العريبي.
- الجوانب الصوتية الوظيفية في توجيه القراءات الشاذة، (ماجستير) - جامعة اليرموك، ١٩٩٨ للباحث: فاتنة جمال مفلح.
- معايير التوجيه الفونولوجي للقراءات السبع عند أبي زنجلة في حجة القراءات، (ماجستير) - جامعة مؤتة، ٢٠٠١ للباحثة: رانية السقرات.
- ما انفرد به أبو عمرو بن العلاء من القراءات: دراسة لغوية تحليلية، (ماجستير) - جامعة مؤتة، ٢٠٠٢، للباحث: نايف محمد سليمان النجدات.
- كتاب (معاني القراءات) لأبي منصور الأزهري دراسة لغوية (ماجستير) - جامعة الموصل ٢٠٠٥ للباحثة: ربي ذنون يونس الملا ذنون.
- التوجيه الصوتي للقراءات الشاذة في كتاب مختصر في شواذ القرآن لابن خالويه (ماجستير) - جامعة مؤتة ٢٠٠٦ للباحث: عثمان الدراوشة.

٢- الفرع إلى القراءات لإثبات نظرية لغوية أو رأي محدد.

يبي المحذون ما للقراءات من قداسة ومكانة؛ لذا حاول الكثير منهم أن يستشهد بالقراءات لإثبات آرائه ونظراته اللغوية، ليضفي على رأيه قداسة ووجاهة، فعلى سبيل المثال جنح إبراهيم أنيس في نظريته (قصة الإعراب)^(١) للقراءات ليثبت أن الأصل في الكلمات تسكين الآخر، ولسنا بصدد الرد عليه أو ذِكر من ردوا عليه، لكن ما يعيننا هنا أن المعنيين بالدراسات الصوتية حاولوا أن يوظفوا القراءات في درسهم الصوتي، ويوجهوها وفق نظرياتهم الخاصة، وهذا ما نجد واضحاً عند إبراهيم أنيس، ولا يختلف تلميذه الدكتور عبد الصبور شاهين عنه كثيراً في توظيفه للقراءات والاستناد بها لإثبات ما يراه، كما في كتابه (أثر القراءات في الأصوات والنحو العربي)، فما قاله في هذا الصدد «نخالف سيبويه ومن تبعه في جعله الإسكان في الإدغام ناشئاً عن تلاقي أصوات ذات صفات معينة، ونذهب إلى أنه نظام مقطعي التزمته لهجات القبائل... كما جاز أن تُقرأ به نصوص القرآن في جملة قراءات مروية، وفي مقدمتها قراءة أبي عمرو بن العلاء»^(٢).

إذن هو يخالف إمام النحويين مستدلاً على أن هناك مقطعا صوتيا ورد كثيراً في القراءات ومن ضمنها قراءة أبي عمرو، وهو ناتج عن اختلاف لهجي وليس كما علل سيبويه. وحاول الدكتور شاهين أن يثبت أن تخفيف عين الكلمة - إذا كانت حركتها الفتحة - سائغ، معتمداً على قراءة أبي عمرو، وأن النحويين أخطأوا عندما منعوا ذلك، فما قال في هذا المقام: «إن ظاهرة إسكان عين الكلمة تميمية وأن اختيار أبي عمرو لرواية الإسكان في غالب هذا الباب قد يكون ناشئاً عن اعتزازه بلهجة قومه... كما وضح أن هذا الإسكان جارٍ في عين الكلمة مضمومة أو مفتوحة أو مكسورة، بخلاف ما قرره النحاة من اقتصاره على المضموم والمكسور دون المفتوح»^(٣).

وعلى هذا النحو سار في كتابه.

(١) انظر: من أسرار اللغة، الفصل الثالث: ص: ١٧٠ وما بعدها.

(٢) أثر القراءات في الأصوات والنحو العربي ٣٩٠.

(٣) السابق: ٣٣٦.

٣- وضع فهرست أو معاجم للقراءات القرآنية.

اهتم بعض المختصين باللغة العربية بتتبع ألفاظ القرآن الكريم بقراءاته المختلفة، ووضعوا ما يشبه الفهرست لتلك القراءات، ومن أصدق الأمثلة على ذلك كتاب (دراسات لأسلوب القرآن الكريم) للشيخ محمد عبد الخالق عزيمة، الذي قال في مقدمته: «استهدفتُ أن أصنع للقرآن الكريم معجماً نحويّاً صرفيّاً، يكون مرجعاً لدارس النحو، فيستطيع أن يعرف متى أراد أَوْقَعَ مثل هذا الأسلوب في القرآن أم لا؟ وإذا كان في القرآن فهل ورد كثيراً أو قليلاً، وفي قراءات متواترة أو شاذة؟»^(١).

وقد أوضح عزيمة - رَحِمَهُ اللهُ - الدافع لوضع هذه الفهرست لألفاظ القرآن الكريم بقراءاته المختلفة، قائلاً: «وكان تعويل النحويين على الشعر ثغرةً نفذ منها الطاعنون عليهم؛ لأن الشعر رُوي بروايات مختلفة؛ كما أنه موضعُ ضرورة. لهذا مسّت الحاجة إلى إنشاء دراسة شاملة لأسلوب القرآن الكريم في جميع رواياته؛ إذ في هذه القراءات ثروة لغوية ونحوية جديرة بالدرس، وفيها دفاعٌ عن النحو، تعضد قواعده، وتدعم شواهدَه»^(٢). وجاء ترتيبه للقراءات وفقاً للأداة النحوية، أو الموضوع الصرفي أو النحوي، وتلك أقسام كتابه الثلاثة (الأدوات، الصرف، النحو)، فهو لا يرتب القراءات حسب لفظة القراءة، وإنما حسب الموضوع، ثم يرتب القراءات - غالباً - حسب ترتيب السور. وهناك كتب معجمية اختلفت بألفاظ القراءات، ووَضَعَهَا متخصصون في اللغة، من أشهرها:

١- معجم القراءات القرآنية من إعداد د. أحمد مختار عمر، ود. عبد العال سالم مكرم، وقد أودعا في هذا الكتاب مجموعة ضخمة من القراءات المتواترة والشاذة مع إشارة إلى مصادر كل قراءة، وقد رَجَعَا إلى عشرين مرجعاً أصلياً منها ما هو مختص بالقراءات كالتيسير للداني والنشر لابن الجزري، ومنها ما هو مختص بتوجيه القراءات، كالحجة لأبي زرعَة والكشف لمكي، ومنها ما هو من كتب التفسير كتفسير الطبري وتفسير

(١) دراسات لأسلوب القرآن الكريم (المقدمة) القسم الأول، الجزء الأول، ص: ١.

(٢) السابق ص: ٢.

القرطبي^(١).

والمعجم مرتب حسب السور، ابتداء من سورة الفاتحة وانتهاء بسورة الناس، ففي كل سورة يُذكر ما فيها من قراءات مع ذكر للقراء والمصادر التي وردت القراءة فيها، وتُكتب القراءة بلفظها وضبطها، وهذه من ميزات الكتاب فهو لا يجري على ما سار عليه الأقدمون من ذكر توصيف للقراءة، دون ذكرٍ للفظها، فمثلا في هذا المعجم ذكروا ألفاظ القراءات في (عليهم)^(٢). وهي: عَلَيْهِمْ، عَلَيْهِمْ، عَلَيْهِمْ، عَلَيْهِمْ، عَلَيْهِمْ، عَلَيْهِمْ، وهي: عَلَيْهِمْ.

وجاء المعجم على شكل جداول، كل جدول من ستة أعمدة (مسلسل، رقم الآية، النص المصحفي، أوجه القراءة، القارئ، المصدر)، وهذه الأعمدة أخذت حيزا كبيرا؛ لأن رقم الآية مثلا يكون تحته فراغ مستمر لعدة صفحات، مما ضخم حجم الكتاب، وربما لو دُمجت بعض الأعمدة مع بعض، أو استغني عن طريقة الجدولة لكان ذلك أحسن. وعلى أية حال فالكتاب مرجع مهم في ألفاظ القراءات القرآنية المتواتر منها والشاذ.

٢- المعجم الموسوعي لألفاظ القرآن الكريم وقراءاته من إعداد د. أحمد مختار عمر مع فريق عمل علمي، وكان القسم الثالث منه مخصصاً للقراءات.

ومن ضمن أهداف هذا المعجم: «إفادة المتخصصين في حقل الدراسات اللغوية والقرآنية من خلال تزويدهم بالمعلومات اللغوية الرئيسة عن كل كلمة من ناحية، وفتح مجالات البحث من ناحية أخرى ... وإعادة النظر في بعض المسائل النحوية والصرفية من خلال الاستفادة من أكبر مادة لغوية موثقة ضمت ألفاظ القرآن الكريم وقراءاته في مكان واحد»^(٣).

وهذه ميزة تسجل لهذا المعجم أنه جمع ألفاظ القرآن والقراءات في مكان واحد

(١) انظر ثبت المراجع الأصلية ورموزها التي في مقدمة معجم القراءات القرآنية، صفحة: ع.

(٢) معجم القراءات القرآنية، ١٢-١٣.

(٣) المعجم الموسوعي لألفاظ القرآن الكريم وقراءاته: ص: ١١

يسهل الرجوع إليها، والتنقل بينها، إضافةً إلى توافر نسخة إلكترونية مصاحبة للكتاب الأصلي تُسهّل البحث وتخدم الأصل.

وقد بلغ عدد القراءات الواردة في المعجم (٦١٣٧) قراءة، وبلغ عدد جذور القراءات في المعجم (١٢٥٣) جذراً^(١)، وكان الترميز لمصادر القراءات بستة أرقام:

الرقم (١) للقراءات في كتب القراءات السبع.

الرقم (٢) للقراءات في كتب القراءات العشر.

الرقم (٣) للقراءات في كتب القراءات الأربع عشرة.

الرقم (٤) للقراءات في كتب شواذ القراءات.

الرقم (٥) للقراءات في المصادر العامة.

الرقم (٦) للقراءات في كتاب معجم القراءات القرآنية.

إن هذا المعجم أفاد من التقنية الحديثة بحصر الكلمات والألفاظ وفهرستها وتصنيفها، وهو عمل نتج عن تكاتف الجهود من فريق عمل متكامل، إلا أنه يؤخذ على الكتاب صغر الخط وتزاحم الأسطر وكثرة الرموز الاصطلاحيات التي لا تُفهم إلا بعد طول تأمل، مع حشر ذلك في مجلد واحد فقط، وكان من المتوقع أن يكون في عدة مجلدات، إلا أن هذا لا يقلل من هذا العمل الضخم والجهد الجبار الذي خدم علوم القرآن وعلوم العربية.

٣- معجم القراءات القرآنية للدكتور: عبد اللطيف محمد الخطيب، وهو معجم ضخم، بلغ أحد عشر مجلداً ضخماً، وذكر مؤلفه أنه عمل في تجميع مادته مدة خمس وعشرين سنة، وأوضح أهميته بأن من «أراد علماً قرآنياً له تاريخه ورجاله فدونه ما في هذا المعجم، فهو الغاية، ومن أراد نحواً و صرفاً ولغةً يصدر فيها عن كتاب الله ويمتاع فيها من معينه فليُنظر فيما سقته إليه، فإن فيه من الخير والفضل ما لا تجده مجموعاً في مؤلفات النحو والصرف إلا نُتقاً وتفاريقاً، إنه نحو الفطرة الذي وقته نصيبه القراءة»

(١) السابق: ص: ٣٤

القرآنية متواترها وشأدها»^(١).

ومن المزايا لهذا المعجم: أن مصنف المعجم كان حاضراً في كل معالجة نحوية أو صرفية للقراءات، وكان حرصه ظاهراً في إيراد ما اتصل بلغات العرب فأعطى تصوراً عن التوزيع الجغرافي للهجات إلى غير ذلك من مزايا الكتاب^(٢).

والكتاب لا يكتفي بذكر القراءة وقراءتها، بل يتعداه إلى ذكر بعض الأقوال والتوجيهات للقراءات التي تحتاج لذلك.

وفي نظري لو أن الكتاب قُسم قسمين: أحدهما للقراءات المتواترة، والآخر للقراءات الشاذة، لكان ذلك أدمى للفهم، وأبعد عن السأم، وأخف للقارئ، وأكثر تخصصية، على الرغم مما ينتج عنه من تكرار للمواضع لكنه تكرار تقتضيه حاجة التقسيم والتبويب.

٤- إيراد القراءات وتوجيهها عبر المواقع الإلكترونية:

تزخر الشبكة النيتية بعدد كبير من المواقع المتخصصة باللغة العربية، منها المتعمق، ومنها المتوسط، ومنها المتواضع في طرحه، لكن في خضم هذا البحر المتلاطم من الصفحات الإلكترونية، تجد مواقع متميزة ورصينة وتفاعلية، تتناول القراءات القرآنية إما بالاستشهاد أو توجيه لبعض منها، أو إجابة عن أسئلة واردة حول قراءة من القراءات، أو ذكر لبعض كتب توجيه القراءات، وهذا الحراك العلمي الإلكتروني يسهم في نشر القراءات، ومعرفة بعض أوجهها في العربية، على الرغم من أن تلك المواقع ما زالت في البدايات، وتحتاج إلى وقت لينضج ما يعرض فيها، لكنها أسهمت إسهاماً ملحوظاً في هذا المجال، ومن أمثلة تلك المواقع:

مجمع اللغة العربية الأردني www.majma.org.jo:

مجمع اللغة العربية بالقاهرة: www.arabicacademy.org

موقع الفصيح: www.alfaseeh.com/v

(١) معجم القراءات للخطيب: ١/ ٢٤.

(٢) انظر: تقرير الدكتور سعد مصلوح في بداية الكتاب: ١/ ١٨.

منتدى اللسانيات: (www.lissaniat.net)

مجلة اللسان العربي: www.arabization.org.ma

شبكة صوت العربية: www.voiceofarabic.com

إن هذه المواقع وسيلة حديثة للتعرف على القراءات المختلفة ومعرفة توجيهاتها، ونشر كتب الأقدمين من خلالها، وذاك جهد مشكور، وعمل غير منكور.

الخاتمة

عُني هذا البحث بالجهود التي بذلها علماء اللغة الأوائل وكذا الأواخر في سبيل خدمة القراءات القرآنية، وقد تنوعت مظاهر تلك الخدمة، من توجيهٍ للقراءات واستقصاءٍ لأوجهها في العربية كما هو الحال عند الأقدمين، إلى قيام دراساتٍ لغويةٍ حول القراءات القرآنية كما هو الحال في وقتنا الحاضر، وهذه الجهود تدل دلالة واضحة على اهتمام المتخصصين في علم العربية بالقراءات القرآنية، وأن لها مكانة عظمى لديهم، ولا عَرَوَ ولا عَجَبَ في ذلك، فتلك القراءات منطلقة من القرآن الكريم المعجز ببلاغته وفصاحته، وهو المصدر الأول لعلوم العربية.

إن هذه الجهود تدحض ما أشيع من عدم احترام النحويين للقراءات، وإنما حدث لبسٌ عند بعضهم، فتوهمَ عدم صحة بعض القراءات فأنكرها، ولو علم بثبوتها وتيقنَ لما حاد عنها قيد أنملة، هذا بشكل عام، لكن لا يعني أنه لا يوجد بعض اللغويين الذين حادوا عن الصواب وتمادوا في إنكار بعض القراءات اتباعاً لمنهج عقدي كالفارسي وابن جني، أو لتوهم أن القراءة لا تصح إذا خالفت القواعد العامة للنحو العربي كما هو عند عدد من النحويين واللغويين.

وكان للمُحدِّثين جهود مثمرة وأعمال مشرقة في الاهتمام بالقراءات القرآنية والاحتفاء بها، من دراسة لها ووضع معاجم خاصة بها إلى غير ذلك.

المراجع

١. أثر القراءات في الأصوات والنحو العربي، د/ عبد الصبور شاهين، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٧م.
٢. أثر القراءات القرآنية في الدراسات النحوية، د/ عبد العال سالم مكرم، الكويت، الطبعة الأولى، ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م.
٣. الاحتجاج بالقراءات القرآنية في شواهد كتاب شواهد التوضيح والتصحيح، د: إبراهيم الأركي، د. عثمان الأركي، مجلة ديالى، العدد الخامس والعشرون ٢٠٠٧م.
٤. الأخفش الأوسط أمقلد هو أم مجود (مقال) د. عبد الكريم بن محمد الأسعد، مجلة البحوث الإسلامية، العدد ٣٨، لسنة ١٤١٣هـ / ١٤١٤هـ.
٥. الاقتراح للسيوطي، تعليق: د. محمود سليمان ياقوت، دار المعرفة الجامعية، مصر، ١٤٢٦هـ / ٢٠٠٦م.
٦. البحر المحيط لأبي حيان، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١١هـ / ١٩٩١م.
٧. البنية المقطعية وأثرها الدلالي في القراءات القرآنية (بحث للدكتور محمد إسماعيل محمد، مجلة آداب الرافدين، العدد ٥٤).
٨. جامع البيان في تأويل القرآن (تفسير الطبري) تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.
٩. الحجة في علل القراءات السبع لأبي علي الفارسي، تحقيق: أ.د / عبد الفتاح شلبي، د/ عبد الحلیم النجار، علي النجدي، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٤٢١هـ / ٢٠٠٠م. ب_ تحقيق: بدر الدين قهوجي - بشير جويجاي، دار المأمون للتراث، دمشق، الطبعة الثانية ١٤١٣هـ / ١٩٩٣م.
١٠. الحجة في القراءات السبع لابن خالويه، تحقيق: د / عبد العال مكرم، دار الشروق، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤٠١هـ.

١١. حجة القراءات، لأبي زرعة، تحقيق: سعيد الأفغاني، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٩هـ.
١٢. جهود سيبويه في التفسير (مقال للدكتور: أحمد الخراط) مجلة البحوث والدراسات القرآنية بمجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، العدد الأول.
١٣. الدر المصون في علوم الكتاب المكنون للسمن الحلبي، تحقيق: د/ أحمد الخراط، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م.
١٤. شرح الكافية الشافية لابن مالك، تحقيق: د/ عبد المنعم هريدي، مكة المكرمة، جامعة أم القرى، مركز البحث العلمي وإحياء التراث، الطبعة الأولى، بدون تاريخ.
١٥. عناية المسلمين باللغة العربية خدمةً للقرآن الكريم: د. أحمد الخراط، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف- المدينة المنورة، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ.
١٦. عناية المسلمين باللغة العربية خدمةً للقرآن الكريم: د. سليمان بن إبراهيم العايد، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف- المدينة المنورة، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ.
١٧. قراءة في كتاب نظرية النحو القرآني، د. محمد حسن عواد، بحث منشور في المجلة الأردنية للدراسات الإسلامية، المجلد السابع ١٤٣٣هـ / ٢٠١١م.
١٨. الكتاب، لسيبويه، تحقيق: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م.
١٩. الكشف عن وجوه القراءات السبع لمكي بن أبي طالب، تحقيق: د/ محيي الدين رمضان، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الخامسة ١٤١٨هـ / ١٩٩٧م.
٢٠. الكنز في القراءات العشر لابن المبارك التاجر الواسطي، تحقيق: د. خالد المشهداني، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ، ٢٠٠٤م.
٢١. اللهجات العربية في القراءات القرآنية، د. عبده الراجحي، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، مصر، ١٤١٦هـ / ١٩٩٦م.

٢٢. المحتسب لابن جني، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ / ١٩٩٨م.
٢٣. المحرر الوجيز لابن عطية، تحقيق: د/ عبد السلام عبد الشافي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م.
٢٤. المدارس النحوية، د. شوقي ضيف، دار المعارف، مصر، الطبعة السابعة.
٢٥. معاني القراءات لأبي منصور الأزهري، تحقيق: أحمد فريد المزيدي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م.
٢٦. معاني القرآن وإعرابه للزجاج، تحقيق: د/ عبد الجليل عبده شلبي، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م.
٢٧. معجم القراءات، د. عبد اللطيف الخطيب، دار سعد الدين للطباعة والنشر، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ / ٢٠٠٢م.
٢٨. معجم القراءات القرآنية، إعداد: د. أحمد عمر مختار ود. عبد العال سالم مكرم، جامعة الكويت، الطبعة الثانية، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م.
٢٩. من أسرار اللغة لإبراهيم أنيس، مكتبة الأنجوي المصرية، الطبعة الثامنة، ٢٠٠٣م.
٣٠. موقف اللغويين من القراءات الشاذة، محمد السيد أحمد عزوز، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ / ٢٠٠١م.
٣١. موقف النحاة المعاصرين من القراءات القرآنية (الشيخ محمد عضيمة نموذجاً) د. سليمان العايد، بحث منشور على الشبكة العالمية (الإنترنت).
٣٢. النشر في القراءات العشر لابن الجزري، تصحيح: علي محمد الضباع، دار الفكر.

فهرس الموضوعات

الصفحة	الموضوع
١٩	مُلخَصُ البَحْثِ
٢٠	المقدمة
٢٣	المبحث الأول: تعامل اللغويين القدامى مع القراءات
٢٣	١- الاحتكام إلى القراءات القرآنية في مواطن الخلاف النحوي
٢٥	٢- إيراد القراءات القرآنية والاستشهاد بها
٣٠	٣- توجيه القراءات وتتبع أوجه الإعراب المحتملة فيها
٣٥	المبحث الثاني: التعامل مع القراءات عند المُحدِّثين
٣٥	١- دراسة القراءات القرآنية وفق علم اللغة الحديث
٣٨	٢- الفرع إلى القراءات لإثبات نظرية لغوية أو رأي محدد
٣٩	٣- وضع فهرست أو معاجم للقراءات القرآنية
٤٤	الخاتمة
٤٥	المراجع
٤٨	فهرس الموضوعات